الرواية البغدادية تصدر بالعبرية في اسرائيل

هي أمكنة وحوادث وذكريات تُكتَب بلغة غير لغتها

ثائر صالح

■ الأدب الإسرائيلي أدب حديث المولد، سبب حداثته يعود الى حداثة اللغة التي كتب بها، فقد ابتكرت في أواخر القرن التاسع عشر، وهي لغة مصطنعة شأنها شأن دولة اسرائيل.

ولم تصبح العبرية الحديثة لغة أدبية حتى بعد قيام دولة اسرائيل بسنوات طويلة إذ جوبهت بمقاومة عنيفة من قبل الناطقين باليديشية من الاشكناز الذين سيطروا على مقاليد الأمور في اسرائيل، ويجهل اليهود الذي تجمعوا من كل بقاع العالم باللغة الجديدة التي تعين عليهم تعلمها، وما كانوا يجيدونها في الاستعمال اليومي. ناهيك عن استعمالها كلغة أدبية للقراءة والكتابة.

واليديشية هي لغة يهود شرق أوروبا التي بنيت على أساس اللغة الألمانية المطعمة بكلمات عبرية وسلافية وآرامية وغيرها.

واحتلت العبرية الحديثة مكانتها الحالية بعد جهود مضنية قام بها عدد من أنصارها، وبدأ أسلوب أدبي بالظهور. لكن الأدب لا يظهر من العدم. فقد نقل المهاجرون اليهود أدب أوطانهم السابقة وخبرة المجتمعات التي عاشوا فيها - سواء عبر التجربة الشخصية والفردية، أو عبر الذاكرة الجماعية للطائفة اليهودية التي اختزنت خلاصة خبرة المجتمعات التي عاشت بين ظهرانيها لمئات أو آلاف السنين.

وكان كل هؤلاء من الأشكناز، أي اليهود «الغربيين» (يهود شرق أوروبا في الأصل)، ولم يبرز من السفارديم (نسبة الى سافارد وهي الأندلس، والمصطلح يدل على اليهود الشرقيين) كتاب وشعراء إلا في الآونة الأخيرة. فما السبب في ذلك؟

يعود الفضل في تكوين اللغة العبرية الحديثة الى اللتواني اليعيزر بن يهودا الذي هاجر الى فلسطين عام ١٨٨١. ونشط في تعليم ونشر اللغة العبرية بالرغم من المقاومة التي واجهها به الحاخامات بدعوى أن العبرية هي لغة مقدسة، ولا يجوز استعمالها في شؤون الحياة اليومية، الدنيوية، وبدأ بن يهودا بتأليف قاموس اللغة العبرية القديمة والجديدة، مستفيداً من العهد القديم والتلمود (المكتوب بالآرامية) والأدب العبري للقرون الوسطى، واستفاد كثيراً من النشاط الفكري الكبير الذي قام به اليهود في الأندلس في ظل التقدم الحضاري العربي هناك، ثم انتقل الى اللغات السامية الأخرى للاستفادة منها في استنباط المزيد والمزيد من الكلمات الضرورية للتعبير عن حاجات الحياة اليومية.

ولما لم يكن كل ذلك كافياً للتعبير، توجه الى اللغات الأوروبية لسد الثغرات ووصف المزيد من الظواهر الحديثة التي لم تكن معروفة في زمن التوراة أو في القرون الوسطى.

وصدر من المعجم العبري الكبير تسعة مجلدات في حياة بن يهودا، ولم يكمله، ويصدر المعجم الآن بستة عشر جزءاً. بذلك أصبحت العبرية الحديثة لغة مطواعة يمكن تكييفها لتلائم مختلف الأغراض، قابلة للتعبير عن المصطلحات المختلفة بسهولة ويسر.

في مثل هذا المحيط اللغوي، تاه اليهود «العرب» الذين هاجروا أو هُجّروا من البلدان العربية، وكان عليهم أولاً تعلم العبرية الحديثة بعد أن كانوا يستعملون العربية (بمختلف لغاتها العامية) للكلام والتفكير والتعبير عن أنفسهم. وكان بين المثقفين من اليهود العرب الذين وصلوا اسرائيل من اصيب بصدمة اللغة والثقافة، فقد انتزعوا من رحم حضارة اعتادوها، ووجدوا أنفسهم في مخاض ثقافة جديدة لم يألفوها. عليهم تعلمها ولبس الثوب الجديد إن شاءوا البقاء كمثقفين.

وجرى كل ذلك وسط الريبة التي واجههم بها اليهود الغربيون (الاشكناز) الذين اعتبروهم «عرباً»، أو عملاء للعرب في أفضل الأحوال.

هذا كان الخيار الصعب الذي كان على الوافدين الجدد تجرعه. لذلك صمت العديد منهم لسنوات طويلة قبل أن تتهاوى الجوائز التقديرية أمام أقدام عدد منهم، وقبل أن تنفتح أمامهم أبواب مكاتب الناشرين. «لقد كنت في العراق بعيداً عن الإيديولوجية الصهيونية، ورغم ذلك كنت في نظر الكثيرين هناك عميلاً «للعصابات الصهيونية»، أما في اسرائيل التي لجأت اليها فقد كانت النظرات ترمقني في شك واضح لأن رائحة «العدو العربي» تفوح منّي» (من محاضرة لسامي ميخائيل في القاهرة في تشرين الأول (أوكتوبر) ١٩٩٥ صدرت في نشرة المركز الأكاديمي الإسرائيلي في القاهرة، العدد ٢٠، نيسان (ابريل) ١٩٩٧. هذا ما قاله سامي ميخائيل الكاتب الإسرائيلي المولود في العراق. «بعد قدومي الى اسرائيل واجهت وضعاً لا يحتمل، كنت أقرأ بالإنجليزية وأتحدث بالعبرية وأكتب بالعربية.

وقد استمرت هذه الفترة ست سنوات، عملت خلالها في هيئة تحرير إحدى المجلات الأسبوعية العربية «قال ذلك في مناسبة سابقة، وقد عمل في رئاسة تحرير صحيفة الاتحاد الحيفاوية لغاية عام ١٩٥٥. وقال أيضاً «لقد كبرنا كعراقيين وتكلمنا وفكرنا وكتبنا بالعربية، وكانت اللغة الثانية بالنسبة لنا هي العبرية.

ففي المعبد كانت العبرية تتلى علينا من دون أن نفهم المضمون، ولم تكن هناك أية ثقافة يهودية موحدة. ولم تكن هناك بالعراق محلات خاصة باليهود مثل شرق أوروبا. كنا نسكن في بيوت مختلطة مع العرب، وأكلنا معهم ولبسنا البيجاما بالمحلة تماماً مثلهم. وكنا في نظر المسلمين وفي نظر أنفسنا عرباً من أصل يهودي».

ويمكن اعتبار سامي ميخائيل أحد أهم الكتاب الإسرائيليين من اليهود المولودين في البلدان العربية الذين يكتبون بالعبرية، نشرت روايته الأولى «متساوون ومتساوون أكثر» في العام ١٩٧٤، بعدها بعام نشر قصة «عاصفة بين النخيل»، وهي قصة للشباب، ثم توالت أعماله لينشر روايته «فيكتوريا» التي صدرت في العام ١٩٩٣ عن دار عم عوبد وحظيت بشعبية منقطعة النظير، إذ احتلت الصدارة في قائمة الكتب الأكثر مبيعاً لأكثر من أربعين أسبوعاً، وطبعت ١٢ مرة خلال سنة واحدة، وترجمت الى العديد من اللغات، ومنها العربية والانجليزية والهولندية والألمانية والفرنسية واليونانية.

ترجم الرواية الى العربية الروائي سمير نقاش، وصدرت في القاهرة في العام ١٩٩٥، وهي تصف الحياة اليومية لعائلة يهودية من بغداد وتتابع سيرة فيكتوريا بطلة القصة منذ العشرينيات حتى سنوات مضت، عندما تتواصل حياتها في مستعمرة رامات جن قرب تل أبيب.

ولد سامي ميخائيل في بغداد عام ١٩٢٦، وحصل على تعليمه الابتدائي والثانوي هناك. هرب الى ايران عام ١٩٤٨ لنشاطه السياسي، فقد انتسب الى الحزب الشيوعي العراقي مبكراً. ومنها توجه الى اسرائيل.

حصل على شهادة الدكتوراه الفخرية من الجامعة العبرية في العام ١٩٩٥ تقديراً لنشاطه الأدبي. اتجه غالبية المثقفين الى الكتابة بالعبرية، رغم قناعة العديد منهم بأن العربية هي لغتهم الأم.

ويعود سبب ذلك الى أن السؤال التقليدي «لمن أكتب» هو الذي فرض ذلك الخيار الصعب. فأين تجد في اسرائيل داراً للنشر توافق على نشر نص عربي؟، وان حالفك الحظ فنشرت بالعربية، من سيقرأ لك؟. هذه الأسئلة هي التي أجبرت الكاتب والباحث شمعون بلاص على الكتابة بالعبرية. وما كان بلاص الذي ولد ببغداد عام ١٩٣٠ يختلف عن زميله ميخائيل في ميوله السياسية، ولا في صراعاته الداخلية وتأرجحه بين وطنين ولغتين. ويحن اليهود العراقيون الى ماضيهم بألم، ويذكرون بفخر تلك الفترة العاصفة من تاريخ العراق المعاصر التي اشتركوا هم أيضاً بصنعه.

يتذكر البرفسور ساسون سوميخ رئيس قسم الأدب العربي في جامعة تل أبيب مدرسته، مدرسة شماش الثانوية ببغداد التي قابلت جامع الحيدرخانة الشهير، وجاورت مقهى حسن عجمي حيث كان عمالقة الشعر والأدب يجلسون لتناول الشاي وتعاطي الثقافة أمثال الجواهري الكبير.

ويذكر سوميخ معلمي المدرسة أمثال السيد هادي الصدر، وهو عالم دين من علماء الكاظمية، وابن عم السيد محمد الصدر الذي تولى الوزارة العراقية في أواخر الأربعينيات، والدكتور مراد ميخائيل مدير المدرسة الذي واصل في اسرائيل مسيرته العلمية والتربوية. وكان بين مدرسيه المفضلين علمان من أعلام الثقافة العربية المعاصرة العالمان اللبنانيان حسين مروة ومحمد شرارة، اللذان درسا في النجف الأشرف ودرّسا في بغداد، وكانا من أهم الناطقين بمفاهيم اليسار في عالم الأدب والثقافة(٢).

ولد البروفسور ساسون سوميخ في بغداد عام ١٩٣٥، وانتقل الى اسرائيل عام ١٩٥١. حصل على الدكتوراه في الأدب العربي من جامعة أوكسفورد، وله الكثير من الكتب والأبحاث حول الأدب العربي المعاصر، اهتم بالشعر العربي الحديث وترجم الى العبرية مجموعات منه.

اليهود العراقيون

عاش اليهود في العراق منذ زمن السبي في القرن السادس قبل الميلاد، وازدهرت التجمعات اليهودية في بابل وعانة وغيرها من مدن وادي الرافدين، ولعبت تجمعات اليهود هناك (الى جانب التجمع اليهودي المهم في الاسكندرية بمصر) دوراً مهماً في التطور الثقافي والفكري والديني لليهود بشكل عام.

ففي حين أسهم يهود الاسكندرية في ادخال الفلسفة الهيلينستية اليونانية الى الفكر اليهودي، قام يهود بلاد الرافدين في بابل بتدوين التلمود البابلي - وهو أهم نص ديني ظهر في الفترة التي تلت العهد القديم.

وبعد أن قضى الملك الفارسي الأخميني كورش في العام ٥٣٩ ق. م. على الإمبراطورية الكلدانية التي هجرت اليهود الى العراق، خُيّروا في العودة الى أرض كنعان - فلسطين، فعادت مجموعة منهم في حين لم تشأ أعداد أخرى العودة واستقرت في العراق.

ومنذ ذلك الحين عاش اليهود في العراق مع باقي سكانه، بمختلف أعراقهم وأديانهم وطوائفهم واختلطوا بهم. وبحلول القرن العشرين، وبعد قيام الدولة العراقية كان عدد اليهود ٨٧ ألفاً من أصل ٣ ملايين سكنوا العراق آنئذ (نحو ٢,٩ في المئة)، ارتفع هذا الرقم الى ١١٧ ألفاً في الرقم ١٩٤٧ حسب الإحصائيات الرسمية، فشكلوا ٢,٦ في المئة من مجموع السكان، وكانوا وقتها أتباع ثالث أكبر الأديان في العراق بعد الإسلام ٩٣,٣ في المئة (بجميع طوائفه)، والمسيحية ٣,١ في المئة (بمختلف كنائسها). وتذكر المصادر اليهودية أن العدد الحقيقي لليهود في العراق آنئذ كان يقرب من ٣٥٠ ألفاً.

وتكررت تجربة الأحداث التي وقعت قبل أكثر من ٢٥٠٠ سنة، إذ لم تشأ غالبية اليهود ترك العراق الى اسرائيل بعد قيامها على أرض فلسطين عام ١٩٤٨، ولم ينفع الترغيب الذي مارسته الدعاية الصهيونية، ولا الترهيب الذي لحقه عبر الاعتداءات وسلسلة من التفجيرات التي حدثت في كنائس يهودية ببغداد عامي ١٩٥٠ - ١٩٥١.

ولم تبدأ الهجرة الجماعية عام ١٩٥١ إلا بعد صدور قانون اسقاط الجنسية عن اليهود الذي سنته الحكومة العراقية وقتها، فابتدأ «الخروج» الذي تأخر من بابل - هذه المرة ما خُيّروا، بل أجبروا على الرحيل.

وهناك اليوم جاليات يهودية عراقية كبيرة في بريطانيا وأميركا، بالإضافة الى الجالية اليهودية العراقية التي هاجرت الى الهند طلباً للرزق في أوقات سابقة. ويبلغ عدد اليهود المتحدرين من أصل عراقي في اسرائيل نحو ٣٥٣ ألفاً، فهم يشكلون بذلك ثالث أكبر التجمعات اليهودية في اسرائيل بعد اليهود الروس والمغاربة، في المقابل يبلغ عدد اليهود الذين بقوا في العراق اليوم ٧٦ شخصاً فحسب (صحيفة الواشنطن بوست، عدد ١٩٩٨/٣/٢٧).

لكن كيف قضى اليهود العراقيون أيامهم في اسرائيل؟. يقول الكاتب سمير نقاش: «سمّي نزوح يهود العراق الى اسرائيل «مأساة»، أما مأساة عائلتي الشخصية فلا يمكن أن أغفرها لإسرائيل...

لقد كانت هجرتهم [اليهود العراقيين ث.ص] أسوأ هجرة الى اسرائيل، فكل مهاجر من بلد آخر كان يحمل جواز بلده وكان بوسعه مغادرة اسرائيل إذا لم تعجبه الأحوال، أما يهود العراق فقد بيعوا لإسرائيل بكل معنى الكلمة. السلطات الإسرائيلية في حينه تحسب حساب أولئك القادرين على مغادرتها وتحاول ارضاءهم، أما يهود العراق، فقد أذلتهم وعاملتهم كالعبيد تماماً، بعد أن أُسقطت عنهم جنسياتهم العراقية... وأذكر أن يهود العراق لم يسمح لهم في السنوات الأولى الحصول على الجواز الإسرائيلي»(٣).

وسمير نقاش لم يتمكن من التعايش مع الواقع الجديد، ورفض الهيمنة الاشكنازية السياسية والثقافية (ولا أقول الحضارية لأن الحضارة civilization مختلفة عن الثقافة). وتميز عن زملائه بحنقه على اسرائيل ذاتها زيادة على رفضه الصهيونية. أما الكاتب سامي ميخائيل فيقول: «...وكانت لغتي هي اللغة العربية التي كنت أتكلم بها.

ان العقلية والتقاليد وأسلوب التفكير والتطلعات الثقافية عندي قد نبتت وتبلورت جميعها في بغداد العربية المسلمة اليهودية المسيحية. كنت فخوراً بهذه الموروثات وذلك لأن اكتسابها قد استغرق سنوات من الكفاح، وكان الثمن الذي دفعته لاكتسابها باهظاً.

ان كل كتاب وكل فكرة كانت بمثابة تحد لتسلط الاستبداد، وثورة على الجهل والاختناق الثقافي الذي خلفه العصر العثماني الفاسد... لم يخطر ببالي أن هذه الموروثات تعتبر شناعة في المجتمع الإسرائيلي الذي وصلت اليه. ذلك ان الكلمات التي كنت أنطقها والحروف التي كان يخطها قلمي وأفكاري والتقاليد التي جُبلت عليها كانت بجملتها من إنتاج «العدو العربي»(٤).

ونتيجة لهذا الضغط، ومطالبة اسرائيل المهاجرين الجدد بالانصهار التام وخلع الموروثات الثقافية واستبدالها بالشحنة الثقافية الإسرائيلية، «خلع الصبية الذين كانوا في مرحلة المراهقة... جلدهم السابق... متجاهلين بذلك جذورهم.

أما الشيوخ فقد فرضوا على أنفسهم العزلة، وتحصنوا وراء جدار منيع وواصلوا العيش بوصفهم مهاجرين منعزلين عن البيئة المحيطة بهم حتى آخر أيام حياتهم»(٥).

لكن الأمر بدأ بالتغير في التسعينيات. إذ وفر القبول الذي اكتسبته حركة السلام في المجتمع الإسرائيلي الفرصة أمام اعادة اكتشاف الجذور، وجاء الترحاب الذي لاقته الروايات التي كتبها عدد من الكتاب ذوي الأصول الشرقية ليشكل تشجيعاً لهم من أجل البدء بتنفيذ مشروع تأجل ٥٠ عاماً، هو الحفاظ على الهوية الثقافية والجذور الحضارية لليهود الشرقيين، الهوية العراقية أو اليمنية أو المغربية مثلاً.

واختلطت أخيراً الاعتبارات الحضارية بالسياسية (وهل يجوز الفصل بينهما؟) في تجربة تشكيل جمعية للصداقة والتضامن مع الشعب العراقي في تل أبيب، وجاء في بيان الجمعية «يرمي هذا التنظيم الى اقامة الجسور الدائمة مع الأوساط العراقية المعارضة التي تعمل الآن في الغرب، والى التذكير بالتجربة الحياتية المشتركة التي كانت تجمع اليهود وغير اليهود في بلاد الرافدين حتى الهجرة الجماعية التي تمت في أوائل الخمسينات».

وكان بين الذين أسهموا في تأسيس هذه الجمعية الكاتبين سامي ميخائيل وشمعون بلاص، والبروفسور ساسون سوميخ رئيس قسم الأدب العربي في جامعة تل أبيب، والبروفسور يهودا شنهاب رئيس قسم العلوم الاجتماعية في جامعة تل أبيب، والعديد من الأكاديميين والمثقفين ورجال الأعمال المتحدرين من أصل عراقي.

وذكر البيان «ويميز المشاركون تمييزاً تاماً بين النظام الحاكم في العراق وبين الشعب العراقي المغبون» وعرج البيان الذي صدر في الأول من آذار (مارس) ١٩٩٨، على الهدف من هذا التجمع، وهو «النهوض بمشروع بحثي وتربوي لدراسة وتعميم التجربة الحياتية المشتركة في بلاد الرافدين، مهد الحضارات، والمبادرة بجمع وتسجيل شهادات الباقين من يهود العراق قبل فوات الأوان، وستشجع المجموعة الأبحاث الموضوعية والتعددية في هذا المجال».

وأكد البيان على «أنه في السنوات الأولى لقيام اسرائيل نشأ تصور خاطىء مفاده ان الطائفة اليهودية في العراق كانت في خوف دائم من جيرانها المحليين...

ان الأمر يكاد يكون على عكس ذلك، إذ من المنظور الزمني عاشت الطائفتان الواحدة الى جانب الأخرى في انسجام حضاري...».

ترى متى سيتمكن الشعب العراقي من الوصول مجدداً الى العيش في ظل التعددية الدينية والقومية والطائفية والثقافية، بجو من التعايش الذي ميز مجتمعه للآلاف من السنين؟

(١) من مقدمة الرواية نسبة الى صحيفة معاريف ١٩٩١/٢/٢٢.
(٢) البروفسور ساسون سوميخ: المعلمان (من ذكريات بغداد)، الجديد، عدد ١١ - ١٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٥.
(٣) مقابلة مع سمير نقاش أجرتها راحيل يونا، أعيد نشرها في مجلة الثقافة الجديدة العراقية، عدد ٢٥٦ (تموز - آب ١٩٩٣) ص ١٤٦ - ١٥٩.
(٤) من محاضرة سامي ميخائيل في القاهرة.
(٥) المصدر السابق نفسه.

هل يمكن لنقد ان ينشأ من خارج أدبه؟

جودت فخر الدين *

■ يعاني نقدنا الأدبي الحديث من مشكلة عميقة متعددة الوجوه، تجعلنا نذهب احياناً في الكلام عليه الى القول انه غائب أو شبه غائب. وبعض الذين لا يذهبون الى هذا الحد قد يكتفون بالتعبير عن عدم ثقتهم بفاعلية هذا النقد، إذ لا يرون فيه قدرة على اقامة حوار فعّال أو مجد مع الظواهر الادبية التي يتناولها.

وسوف أحصر هذه الوجوه في ثلاثة: ١- العلاقة بينه وبين موضوعه (الادب العربي وبالاخص المعاصر منه). ٢- العلاقة بينه وبين تراثنا النقدي. ٣- العلاقة بينه وبين التيارات النقدية الحديثة (أي الغربية). واذا كان الهدف من هذه المقالة التبصّر في العلاقة الثالثة، فسوف أتناول العلاقتين الأوليين بما أمكن من الايجاز.

١- في علاقته بالنصوص الادبية التي يتناولها، لا يطرح نقدنا الحديث اسئلته الخاصة أو المحرجة على هذه النصوص، وانما يستسلم لها على نحو ما، فيأخذ بادّعاءاتها، ويسعى إجمالاً الى تضخيم اصواتها. ولا نفرّق في هذه النقطة بين نقد صحافي وآخر أكاديمي. وهذه السمة لنقدنا الحديث تظهر بشكل خاص حيال الشعر، اي في نقد الشعر العربي الحديث. فهذا الاخير واكبته - كما نعرف - محاولات تنظيرية سعت الى تسويغه والتبشير به، وقد قام بهذه المحاولات الشعراء انفسهم (يوسف الخال، أدونيس،... وغيرهما). ولمّا أتى النقاد لكي يتناولوا في دراستهم نصوصاً شعرية حديثة، وجدوا انفسهم في قبضة تلك المقولات التي حاول بها الشعراء تسويغ نصوصهم، وهي مقولات استندت في جزء كبير منها الى تجارب أدبية وفكرية غربية. هكذا كان نقدنا الحديث، وخصوصاً حيال الشعر، منقاداً لمقولات وهواجس ليست مقولاته وهواجسه هو. بكلمة اخرى، لم يكن هذا النقد صاحب اسئلة جوهرية يطرحها على الادب، بل ردد اسئلة هذا الادب وهواجسه.

٢- في علاقته بتراثنا النقدي، لم يحاول نقدنا الحديث ان يقيم مع هذا التراث علاقة ايجابية، وإن كانت علاقة رفض أو تجاوز انطلاقاً من طموحات وتطلعات جديدة. وكثيراً ما يبدو لنا ان نقدنا الحديث لا يملك القدرة أو الجرأة على مساءلة نقدنا القديم. ان بعض نقادنا اليوم يأخذون على نقدنا القديم (الذي انطوى على نظرية عامة في الشعر) انه استند الى منطلقات فكرية جاهزة عبّرت عنها علوم البلاغة العربية، وانه تالياً كان معيارياً، ولا يحتكم الى النص اولاً واخيراً. ولكن هؤلاء النقاد انفسهم لا يجدون حرجاً في الأخذ من تيارات أو مناهج نقدية غربية، حاولت ان تطبّق في حقول الادب ١ما قيل في حقول اخرى كالفلسفة، أو علم الاجتماع، أو علم النفس... أو غير ذلك.

ان الحركات النقدية في الغرب يمكن لها ان تنضوي في سياق من التطور التاريخي، أي يمكن لنا ان نرى الى اسباب نشوئها والى الظروف الاجتماعية أو الحضارية التي انتجتها. فلماذا يرتضي نقدنا الحديث الا يبحث لنفسه، عن اسباب أو مسوّغات، من خلال النظر الى صلته بتراثنا النقدي، مهما تكن رويته الى هذه الصلة؟

٣- في علاقته بالتيارات النقدية الحديثة، لم يستطع نقدنا الحديث الا ان ينقل أو يأخذ في أحسن الحالات. واذا تمّ ذلك عن فهم أو استيعاب للتيارات التي يأخذ عنها، كان الامر حسناً، فكيف اذا كان ذلك ناقصاً أو مبتسراً أو مشوهاً؟

التأثر أو التمثل بما هو غربي ليس سلبياً في حد ذاته، أو بالاحرى لا يجب ان يكون مرفوضاً في حدّ ذاته. وإنما ينبغي ان يُنظر الى نتائج هذا التأثر أو التمثل. الا ينبغي ان نطرح في هذه الايام سؤالاً كالآتي: ما الفوائد التي قدمها النقد العربي الحديث في تطبيقاته لبعض المناهج النقدية الغربية على نصوص عربية؟

لقد أعجب الكثيرون من النقاد عندنا بالنقد البنيوي أو بما تلاه من نقد تفكيكي، وحاولوا إخضاع بعض النصوص العربية لما أعجبوا به من وسائل نقدية جديدة، منطلقين من اقتناع لديهم بان هذه الوسائل سوف تساعدهم على إنارة تلك النصوص والكشف عن مكوّناتها أو عناصرها الاساسية. كيف يمكننا وصف ما حصل في ضوء العلاقة التي أقامها بعض نقادنا مع تيارات النقد الغربية، وبالاخص البنيوية والتفكيكية؟

أ) لقد سعى بعض نقادنا الى اثبات قدرتهم على امتلاك وسائل النقد الحديث، بحسب هذا المنهج أو ذاك، فراحوا يستعرضون ما تعلموه أو اقتبسوه في مقارباتهم لنصوص عربية، شعرية أو قصصية. وكانوا في ذلك منطلقين من اقرارهم بأهمية هذه النصوص أو بجمالها. ولذلك لم يكن لديهم سعي للكشف عن سر هذه الاهمية أو ذلك الجمال. ولا يخفى ان كلامنا هذا ينطبق - أكثر ما ينطبق - على بعض المحاولات البنيوية التي شهدها نقدنا الحديث. لقد اقتصرت المحاولات المشار اليها على عمليات وصفية أو احصائية، كان من الممكن ان تطبّق على أي نص، حتى ولو لم يكن ذا قيمة أدبية.

ب) لقد أخذ نقادنا بايجابيات المناهج النقدية التي حاولوا تطبيقها على نصوص عربية، وخصوصاً من ناحية قدرتها على اظهار البنى اللغوية (النحْوية) لهذه النصوص، دون ان يأبهوا كثيراً بما وجّه الى هذه المناهج من انتقادات في الغرب نفسه. هذه الانتقادات كانت بمثابة مراجعات لتلك المناهج، أو بالاحرى كانت تشكيكاً في جدواها من نواح كثيرة، فمثلاً أُخذ المنهج البنيوي انه لا ينتهي الى معنى النص، وإنما يكتفي بالكلام على النحو فيه. كما أُخذ عليه انه لا يصلح بالدرجة نفسها لجميع الانواع الادبية، فهو مثلاً أكثر فائدة للرواية أو القصة منه للشعر. لقد تحمّس نقادنا للتيارات أو المناهج الغربية التي اقتبسوا منها أو حاولوا تطبيقها، دون ان يراودهم الشك حيال فعاليتها ازاء نصوصنا العربية. ولهذا، كانوا دائماً يجدون انفسهم متحمسين لما أخذ الغربيون بمغادرته أو بتجاوزه بحثاً عن غيره.

ج) يعرف نقادنا المعجبون ببعض المناهج أو التيارات النقدية الغربية ان هذه المناهج أو التيارات انتجتها افكار أو فلسفات كان لنشأتها وظهورها في المجتمعات الغربية مسوّغات اجتماعية وتاريخية. يعرفون مثلاً ان البنيوية كانت رد فعل على الوجودية، كما يعرفون ان التفكيك كان تجاوزاً للبنيوية واقتناعاً بانها وصلت الى مداها. وهم يعرفون خصوصاً ان بعض الاعلام من المفكرين والنقاد الغربيين كانت لهم تحولات مهمة بل جذرية نقلتْهم من موقع الى آخر (رولان بارت، ميشال فوكو، جاك دريدا... الخ). يعرف نقادنا هذا كله، ولكنهم لا يأبهون به كثيراً، فهم في الغالب يقتنعون بعالمية الاتجاهات النقدية التي يأخذون منها أو بها، اي انهم يقتنعون بصلاحياتها لجميع الآداب وفي جميع اللغات.

لقد ارتبطت مسيرة النقد في الغرب بمسيرة الفكر هناك. فانحسار التيارات النقدية في الغرب أو نشوؤها انما يكونان تعبيراً عن انحسار نشوء فلسفات أو تيارات فكرية. وما الكلام الآن عن انحسار التفكيكية، بعد البنيوية، الا علامة على ما يشبه الفراغ في مستوى الفكر، علماً بان الاتجاه التفكيكي في النقد الادبي كان قد قام على اتجاه تأويلي عبّر عنه الفيلسوف الألماني هيديجر، الذي تأخرت (نسبياً) ترجمة مؤلفاته الى الانكليزية والفرنسية، فتأخر تأثيره في فرنسا وانكلترا واميركا بعض الوقت.

اذن، للنقد الادبي في الغرب موقعه في مسيرة من التطور الفكري والحضاري. فماذا يريد نقادنا العرب المتأثرون بهذا النقد، أو الآخذون ببعض مناهجه؟ الا يرون ان نقدهم (العربي) ينبغي له ان ينبثق من رؤية خاصة الى الظواهر الادبية عندنا ضمن سياق من التطور التاريخي؟ وهذا لا يمكنه ان يتمّ الا من خلال التبصّر الخلاق في خصوصيات هذه الظواهر، وفي خصوصيات الظروف الاجتماعية التي انتجتها، وفي علاقة هذه الظروف بخلفياتها التاريخية والحضارية. ومثل هذا التبصّر ينبغي ان يرفده تمكّن من وسائل التعبير اللغوي، وامتلاك لعدة نقدية اساسها الخبرة بمقومات الادب البلاغية والايقاعية. ان هذا الامتلاك وذاك التمكّن كثيراً ما نراهما غير متوفرين على نحو كاف لدى المشتغلين في الحقل النقدي عندنا، وخصوصاً لدى أولئك الذين يعتدّون بمعارف استقوْها من مناهل اجنبية.

ان التأثر بالنقد الغربي ليس بالضرورة امراً سلبياً، بل من الممكن ان يكون ايجابياً عندما يفتح للنقد عندنا آفاقاً معرفية واسعة، ويُغني أساليبه وتوجهاته. الا ان هذا التأثر ليس كافياً، ولم يكن كافياً حتى الآن، لايجاد حركة نقدية عربية، ومن شأنها ان تقيم حواراً له ثماره الملموسة مع ظواهرنا الادبية.

(*) شاعر وكاتب لبناني

المشهد الثقافي

«الدين والثقافة والسياسة في الوطن العربي»

● صدر عن دار قباء للطباعة والنشر في القاهرة كتاب «الدين والثقافة والسياسة في الوطن العربي» لحسن حنفي. يحتوي الكتاب على تسعة فصول يحاول من خلالها المؤلف الجمع بين رسالة العالم وهموم المواطن.

وتحمل الفصول الأربعة الاولى عناوين «العرب والوعي التاريخي، صحوة مصر، صحوة العرب، والعرب والعالم».

كما تحمل الفصول الثلاثة التالية عناوين «الثقافة والسياسة، السلفية والعلمانية، والاختلاف والاتفاق» اما الفصلان الاخيران فيحملان عنوان «ما بعد الاصولية، ورمضانيات».

«قصص عابرة»

● صدرت حديثاً في دمشق مجموعة قصصية لعبدالله طاهر بعنوان «قصص عابرة».

تحتوي المجموعة الصادرة عن دار المدى على ست قصص: «حلم سمكة، الضرّة، تل اللذة، البتول، السجادة، البهو».

تتميز القصص بتكثيف للغة وقدرة على السرد واستخدام «الفانتازيا» بفنية متميزة كما في قصة «حلم سمكة».

الدِّين القديم

سمير غريب علي*

■ في عودتي وذهابي أمر بالمقاعد الخشبية الثلاثة، ثلاثة مقاعد حمراء مستطيلة يحتل كل منها جانباً من المساحة القوسية الصغيرة عند ملتقى شارعين، تكون في العادة مزدحمة بهم. يستوقفني أحدهم طالباً سيجارة أو قطعة نقود. لا بد أنه «مراد» أسمع أصواتهم تدعوه من محل اقامتي في الطابق الثالث. وبينما يئس الآخرون مني لم يتوقف هو عن مطالبتي بالدين القديم، «سيجارة يا بن العم... أو قطعة صغيرة!»، أنا لا أدخن، ولا أظن ان نقودي تكفيني وابن العم.

أتسلل خارجاً من باب البيت، أنعطف يميناً فوق الرصيف الضيق حتى لا أمر بمجلسهم. ليس من الصعب في تلك المدينة أن يعثر الواحد على وجهته أينما اتجه، من هنا أو من هناك سوف أصل الى الشارع الكبير الذي ينبغي عليّ أن أعبره في طريقي الى العمل، وسوف أمر أيضاً ببيت السيدة الشريرة التي تحب أن تأكل الفتيات الصغيرات المطبوخات بصوص الطماطم. وقعت تلك القصة في يدي بينما كنت أقلب كتب الأطفال في مكتبة الحي، «حكايات شارع بروكا». أسكن بالقرب من ذلك الشارع، أقطعه بطوله مرتين كل يوم ولا بد أنني أمر ببيت السيدة العجوز، أيّ البيوت؟، لا أدري، لكن الأكيد أنني أمر به مرتين كل يوم. عند كل باب أشم رائحة الصوص ويخيل إليّ أنني أسمع صراخاً ملحاً، مذبوحاً في نهايته، يتجدد الصراخ دورياً على ايقاع خطواتي التي أجتهد في توسيعها. في عودتي أُمني نفسي برؤية الإشارة الأولى لخلاصي من المذبحة: «مراد» جالساً بين الرفاق على المقعد الأحمر، وفي الذهاب أشعر بالراحة كلما وقعت قدمي - اليمنى غالباً - على أول طريق المقابر، أعمل حارساً للقبور.

قبل شهر وجدوا لأجلي ذلك العمل وقالوا لي انه يناسب ظروفي. أنا في الثامنة والأربعين ومريض بالسكر، كما أنني أروغ دائماً من المواقف التي ترغمني على التفاهم بتلك اللغة المجهدة. أقرأ بها لكني لم أزل أجد صعوبة في فهمها منطوقة بتلك الأصوات المنحرفة الملسوعة. الموتى - على أي الأحوال - لا يتكلمون، كما أنني لا أظن أن أحداً في تلك المدينة يسرق أجساد الموتى. في مصر، حيث أنهيت دراستي الجامعية، كنت أقرأ عن رجال يقومون بذلك العمل لصالح طلبة الطب، وكان هذا ما جعلني أفضل التاريخ على الطب.

قضيت خمس سنوات في مصر بعد خروجي من السودان، ثم انتقلت الى ليبيا وبقيت فيها عاماً قالوا لي في نهايته انهم لا يرغبون في وجودي أكثر من ذلك. قصدت سورية حيث عملت بإحدى المحطات الإذاعية أربع سنوات. لم يكن من الحكمة بعدها أن أعود الى مصر، أو السودان. لي عم في لندن مكثت في بيته بعض الوقت قبل أن يقر قراري نهائياً في باريس، الناس هنا طيبون ولا أظن أنهم يسرقون الشواهد الحجرية، كما أن من غير الصعب أن أعثر على أصدقاء ينادونني بابن العم، «إيه كوزان... معك سيجارة؟».

أمس، في طريق العودة، حدثتني نفسي بأن تجربتي الصعبة أورثتني القليل من الحرص، وانتابني شعور بالخجل، وأنا أنحرف بحكم العادة في شارع يوفر على مواجهة «مراد». معي راتب الأيام الثلاثين ولن يضر أن أشتري لأجله علبة سجائر كاملة. لكنني شعرت أيضاً بالخوف حين خطر ببالي أنني سوف أغريه بي. وبعد تقليب الأمر على أوجهه كلها قررت أن أعطيه واحدة وأحتفظ بالبقية في جيبي للمرات القادمة. وكنت أمر بشاعر «بروكا» فلم أسمع الصراخ ولم أشم رائحة الصوص، كنت سعيداً بقراري. تذكرت قرارات أخرى اتخذتها من قبل وأسعدتني.

توقفت أمام محل السجائر وفي نيتي أن أشتري علبة كبيرة، أعرف أن هناك علباً بثلاثين سيجارة، لكنني أمر به مرتين في اليوم، حتى في الأيام التي لا أذهب فيها الى العمل. أنفق وقت فراغي في المكتبة أو في الجلوس الطويل فوق مقعد خشبي آخر عند قاعدة تمثال في الحديقة الواسعة. تعجبني قراءة الحكايات المسلية والجلوس المطمئن في ظل تماثيل النساء اللاتي أظن أنهن كن ملكات في الأزمنة القديمة، فتشت ذاكرتي عن الكلمات ورتبتها ثم أطلقتها في وجه البائعة المبتسمة. طلبت علبتين. كنت راضياً ولا بد أنني ابتسمت أنا الآخر.

شعر «مراد» أسود كالعادة وفي عينيه النظرات العادية نفسها، المتوجسة، المنكسرة. يقترب مني بخطواته اللينة المتأهبة للتوقف الفجائي أو العودة الخائبة، ابتسمت ابتسامة واسعة وأنا أنظر في وجهه مشجعاً، وقلت بالعربية" «أهلاً»، ابتسم هو الآخر وواصل اقترابه مني، قدمت اليه واحدة...

- اسمك مراد؟

سألته فوجه اليّ صوتاً مستقيماً...

- أنت مراد... أليس كذلك؟

- مراد... بلى... أنا (بالفرنسية).

لم تبد عليه الدهشة ولم يسألني كيف عرفت اسمه؟، صدرت من يديه حركات خاطفة كثيرة من الصعب عليّ أن أصفها. فهمت أنه يستعجل العودة، وأدركت أنني لم أزل أمد يدي وأن السيجارة هناك، في موضعها بين أصابعي. تناولها واستدار، ثم رأيته يبتعد باتجاه الرفاق على المقاعد الثلاثة فواصلت السعي الى البيت، وعندما بلغت النافذة في الطابق الثالث فتحتها ونظرت، كان جالساً بينهم يدخن في صمت.

لم أفهم لماذا تصرف على ذلك النحو عندما حدثته بالعربية؟، اسمه «مراد»، شعره أسود ونظرته منكسرة، كما أن الآخرين لا يدعونني بابن العم وينظرون عادة بتعال عندما يطلقون أصواتهم الغليظة بالسؤال. كان يجلس بينهم، يدخن في صمت ويلفت وجهه نحو المتحدثين عن يمينه وشماله، انتابتني الرغبة في أن أدعوه الى البيت، الآن، أجلس قبالته وأسمع منه حكايته، أعد له الشاي وأقدم اليه السجائر، ثم أحكي له عن نفسي، على الأقل: عن جلوسي في ظل تماثيل الملكات وعن قصص الصغار، ربما أحدثه أيضاً بخواطري أثناء مراقبتي الشواهد الحجرية، لكن حكمة الشيخوخة التي أشعر بها تتسلل الى مفاصلي، عاودتني فتوقف النداء في حلقي، وابتعدت عن النافذة كأنما أنفض جسدي من نوبة نزق عارضة، وقررت أن أكتب رسالة، على عادتي، حين يصعد في رأسي شيء من نزقي القديم، أن أكتب رسالة أمزقها قبل أن أنام.

لا أعرف لماذا وجدتني أكتب إليه في مواضيع أخرى. وصفت له جسد المرأة وأفضيت اليه بأسراري البعيدة، قلت له أيضاً أنني كنت أدخن كثيراً، وإنني أجد في نفسي حنيناً الى تدخين سيجارة، وحنيناً الى أن أفعل أشياءُ أخرى أشد نزقاً.

مزقت الرسالة فشعرت بالراحة ونمت، وفي صباح اليوم التالي، عندما خرجت، لم أنعطف يميناً. تعمدت أن أمر بطيئاً بمجلسه دون أن ألتفت. لم يستوقفني. بعد خطوات قليلة توقفت، واستدرت. رأيته يفيق من غفوة. ابتسمت، وصاح هو وقد وقعت عينه عليّ:

- إيه كوزان... معك سيجارة؟

(*) كاتب مصري مقيم في باريس.